بسم الله الرحمن الرحيم

محاضرة دينية

فضيلة الشيخ الدكتور محمد أحمد عبد الغني



بعنوان :

كيف نداوي قلوبنا؟

«شفاء القلوب»

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.أما بعد:

فإن القلب هو موضع صلاح الإنسان وفساده، وقد يمرض كما يمرض البدن، بل إن أمراض القلوب أشد خطرًا؛ لأن أمراض الأبدان تؤثر في حياة الإنسان الدنيا، أما أمراض القلوب فقد تؤثر في دينه ومصيره في الآخرة.

قال الله تعالى:﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: 10].

ومن أخطر هذه الأمراض: الغفلة، وقسوة القلب، والشهوات المحرمة، والشبهات، والرياء، والعُجب، والتعلق بالدنيا، والإصرار على الذنوب.

وقد يحرص الإنسان على علاج بدنه إذا مرض، لكنه يغفل عن قلبه مع أن حاجته إلى إصلاحه أعظم. ولذلك كان واجبًا على المسلم أن يتفقد قلبه، ويعرف أمراضه، ويسعى إلى علاجها قبل أن تستحكم فيه.

فما أبرز الأدوية التي تصلح القلوب وتحييها؟

أولًا: تدبر القرآن الكريم

القرآن الكريم شفاء للقلوب، ونور للبصائر، وهدى ورحمة للمؤمنين.

قال الله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [1] وليس المقصود أن نقرأ القرآن بألسنتنا فحسب، بل أن نتدبر معانيه، ونتأمل أوامره ونواهيه، ونتأثر بوعده ووعيده، ثم نترجم ذلك إلى عمل وسلوك.

فالقرآن يعالج الشبهات بالعلم والبيان، ويعالج الشهوات بالمواعظ والترغيب والترهيب، ويوقظ القلب من غفلته، ويربطه بالله

.فمن أراد شفاء قلبه، فليجعل له نصيبًا يوميًا من القرآن قراءةً وتدبرًا وعملًا. فَتَدَبَّر فِي لَطَائِفِ خِطَابِهِ، وَطَالِبْ نَفْسَكَ بِالقِيَام بِأَحْكَامِهِ، وَقَلْبَكَ بِفَهْمِ مَعَانِيهِ، وَسِرَّكَ بِالإِقْبَالِ عَلَيْهِ [2]

ثانيًا: الدعاء وقيام الليل والاستغفار

القلب محتاج دائمًا إلى عون الله وتثبيته؛ ولذلك كان من دعاء المؤمنين:

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [3].

وكان النبي ﷺ يكثر من الدعاء بقوله: (يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ) [4].

ومن أعظم أوقات الدعاء والاستغفار جوف الليل، حين يخلو العبد بربه، ويعرض حاجته، ويعترف بتقصيره، ويسأله المغفرة والثبات وصلاح القلب.

فقيام الليل ليس مجرد ركعات تؤدى، بل فرصة لمراجعة النفس، وتجديد التوبة، وتقوية الصلة بالله.

ثالثًا: ذكر الله تعالى

ذكر الله حياة القلوب، ودواء الغفلة، وجلاء الصدأ الذي تتركه الذنوب.

قال الله تعالى:﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28].

ومن آثار الذكر أنه يحيي القلب، ويزيل قسوته، وينبهه من الغفلة، وينير بصيرته، ويمنحه الطمأنينة والأنس

([1]) يونس: 57

([2]) زاد المعاد (352/4).

([3]) آل عمران: 8

([4]) أخرجه الترمذي(2140)، من حديث أنس، وفي بابه أربعة أحاديث عن النواس ، وأم سلمة ، و ابن عمرو ، وعائشة وصححه الألباني في المشكاة(102).

بالله. فَإِنَّهُ «لِلقَلْبِ مِثْلُ المَاءِ لِلسَّمَكِ، فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ السَّمَكِ إِذَا فَارَقَ المَاءَ؟!» [5]

وقال النبي ﷺ:مَثَلُ الذي يذكر ربَّه والذي لا يذكر ربَّه، مَثَلُ الحيِّ والميت» [6]

والقلب قد يصدأ بالغفلة والذنوب، ويجلوه الذكر والاستغفار والتوبة؛ ولذلك ينبغي للمسلم أن يجعل لسانه رطبًا بذكر الله، وأن يستحضر معاني ما يقول، فلا يكون الذكر مجرد ألفاظ تجري على اللسان بينما القلب غافل.

رابعًا: العلم النافع

من أسباب أمراض القلوب الجهل بالله وشرعه، والجهل بحقيقة النفس ومداخل الشيطان؛ ولذلك كان العلم النافع من أهم أدوية القلب.

فالعلم الشرعي الصحيح يعرّف الإنسان بربه، ويبين له الحلال والحرام، ويكشف له الشبهات، ويعينه على التمييز بين الحق والباطل.

ومن جهل حكمًا يحتاج إليه، فعليه أن يسأل أهل العلم؛ قال النبي ﷺ في الحديث المتعلق بالرجل الذي أُفتي بغير علم:أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا؟ فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ. [7]

لكن العلم النافع ليس كثرة المعلومات وحدها؛ بل هو علم يورث خشية الله، ويصحح الاعتقاد، ويهذب السلوك، ويدفع صاحبه إلى العمل الصالح.

خامسًا: أكل الحلال واجتناب الحرام والشبهات

لما كان القلب يتأثر بأعمال الإنسان ومكاسبه، كان تحري الحلال من أسباب صلاحه، وكان الحرام والشبهات من أسباب فساده.

قال النبي ﷺ:إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ»؛ ثم بيّن أن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب. متفق عليه.

([5]) الوابل الصيب (ص96).

([6]) رواه البخاري (6407)، ومسلم (779).

([7]) رواه أبو داود (336)، وحسنه الألباني رحمه الله في "صحيح سنن أبي داود"(101/1).

وفي الحديث الآخر بيّن النبي ﷺ أثر الحرام في الدعاء، فقال عن رجل يرفع يديه إلى السماء داعيًا، مع أن مطعمه ومشربه وملبسه حرام: «فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟» [8]

فمن أراد صلاح قلبه، فليتحرَّ الحلال في طعامه وشرابه وكسبه، وليجتنب الحرام، وليحذر من التساهل في الشبهات.

سادسًا: معرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العلى

من أعظم ما يصلح القلب أن يتعرف العبد إلى ربه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى؛ فمعرفة الله تورث محبته وخشيته، وتزيد الرجاء فيه، وتدفع إلى الإخلاص ومراقبته.

فمن عرف أن الله رقيب عليه، استحيا أن يراه حيث نهاه، أو يفقده حيث أمره. ومن استحضر أن الله سميع بصير، راقب أقواله وأعماله، وأصلح ظاهره وباطنه.

وهذه المعرفة ليست معلومات نظرية، بل عبادة قلبية تظهر آثارها في حياة الإنسان، وتدفعه إلى مقام الإحسان، فيعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإن الله يراه.

سابعًا: مجالسة الصالحين والإحسان إلى المحتاجين

ولصحبة أثر كبير في القلب؛ فالإنسان يتأثر بمن يجالسهم، ويكتسب من أخلاقهم واهتماماتهم.

لذلك ينبغي أن يحرص على مجالسة الصالحين، وحضور الجمعة والجماعة، ومجالس العلم والذكر، والابتعاد عن الصحبة التي تعينه على الغفلة والمعصية.

ومن الأعمال التي تلين القلب الإحسان إلى الفقراء والمساكين، والعطف على الأيتام، ومواساة المحتاجين؛ لأن الرحمة بالخلق تعالج قسوة النفس، وتخرج الإنسان من أسر الأنانية والتعلق بالذات. كما في قول النبي لمن شكى إليه قسوة قلبه: عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلاً شَكَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ قَسْوَةَ قَلْبِهِ، فَقَالَ لَهُ: «إِنْ أَرَدْتَ تَلِينَ قَلْبُكَ، فَأَطْعِمِ المِسْكِينَ، وَامْسَحْ رَأْسَ اليَتِيمِ» [9]

فكلما ازداد العبد إحسانًا إلى عباد الله، وتواضعًا لهم، وشعورًا بآلامهم، كان ذلك من أسباب رقة قلبه وحسن خلقه.

([8]) رواه البخاري (52)، ومسلم (1599).

([9]) أخرجه أحمد (2 / 263)، وحسنه الألباني في " صحيح الجامع " (1410).

ثامنًا: ترك الذنوب والتوبة منها

الذنوب من أعظم أسباب مرض القلب؛ فهي تضعف نور الإيمان، وتورث الغفلة، وقد تقود إلى قسوة القلب إذا أصر الإنسان عليها ولم يتب منها.

قال الله تعالى:﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [10]

وبيّن النبي ﷺ أن العبد إذا أذنب نُكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب واستغفر صُقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تغطي قلبه.

وهذا يبين خطورة الإصرار على المعاصي، كما يفتح باب الأمل أمام التائبين؛ فالقلب الذي أظلم بالذنوب يمكن أن يستعيد نوره بالتوبة والاستغفار والإقلاع عن المعصية.

ومن أخطر أمراض القلب العُجب بالعمل، والاغترار بالنفس، ونسيان التقصير؛ ولذلك ينبغي للعبد أن يحاسب نفسه، وألا يغتر بطاعته، وأن يسأل الله القبول والثبات.

تاسعًا: تعظيم شعائر الله

قال الله تعالى:﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[11]

فتعظيم شعائر الله دليل على تقوى القلب، ويظهر في تعظيم أوامر الله ونواهيه، واحترام حرماته، وأداء العبادات بإخلاص وخشوع، بعيدًا عن الاستهانة أو الاعتياد الخالي من استحضار المعنى.

فليست العبرة بأداء العمل في ظاهره فقط، بل بما يصحبه من إخلاص وتعظيم ومحبة لله تعالى.

عاشرًا: الخلوة المشروعة ومحاسبة النفس

يحتاج المسلم إلى أوقات يخلو فيها بنفسه، بعيدًا عن ضجيج الحياة ومشاغلها، يذكر الله، ويقرأ القرآن، ويصلي، ويتفكر في أحواله، ويحاسب نفسه على تقصيرها، ويجدد توبته.

وفي هذه الخلوة يراجع الإنسان نيته، ويستحضر ذنوبه، ويشكر نعم الله عليه، ويضع خطة لإصلاح ما يستطيع إصلاحه.

([10]) المطففين: 14

([11]) الحج: 32

وليس المقصود اعتزال الناس وترك حقوقهم، بل تخصيص أوقات نافعة تعين الإنسان على إصلاح قلبه، ثم العودة إلى حياته أكثر إخلاصًا واستقامةً ونفعًا.

الخاتمة

أيها الأحبة،

إن القلب يحتاج إلى رعاية دائمة، كما يحتاج البدن إلى الغذاء والعلاج. وقد يمرض القلب بالذنوب والغفلة والشهوات والشبهات، لكنه لا يُترك لمرضه؛ فالله تعالى فتح لعباده أبواب التوبة والذكر والعلم والعمل الصالح.

ومن أراد صلاح قلبه، فليجعل القرآن ربيع قلبه، والدعاء صلته بربه، والذكر حياة روحه، والعلم نور بصيرته، والحلال أساس كسبه، ومعرفة الله طريق محبته وخشيته، والصحبة الصالحة عونًا له، والتوبة دواءً لذنوبه، وتعظيم الشعائر دليلًا على تقواه، ومحاسبة النفس سبيلًا إلى إصلاحه.

ولنسأل أنفسنا دائمًا: هل نعتني بقلوبنا كما نعتني بأجسادنا؟ وهل نبادر إلى علاج قسوتها وغفلتها، أم نتركها حتى تستحكم فيها الأمراض؟

نسأل الله تعالى أن يطهر قلوبنا من النفاق، وأعمالنا من الرياء، وألسنتنا من الكذب، وأعيننا من الخيانة، وأن يرزقنا قلوبًا سليمة، ونفوسًا مطمئنة، وأعمالًا صالحة متقبلة.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

والحمد لله رب العالمين.

الدكتور محمد عبد الغني